"دَلِيلُ صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ الثَّانِي مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَ أَهْلِ الْيَمَنِ جِئْنَاكَ لِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى حَاضِرٍ مَشْهُودٍ مَوْجُودٍ، وَالْأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَأْمُورِ، أَيِ الَّذِي كَوَّنَهُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ. وَقَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَدْءِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَوْجُودِ، لَا عَنْ جِنْسِ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَالَ كَوْنِ عَرْشِهِ عَلَى الْمَاءِ، وَلَمْ يُخْبِرْهُمْ عَنْ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»[1] . وَقَدْ رُوِيَ (مَعَهُ) ، وَرُوِيَ (غَيْرُهُ) ، وَالْمَجْلِسُ كَانَ وَاحِدًا، فَعُلِمَ أَنَّهُ قَالَ أَحَدَ الْأَلْفَاظِ وَالْآخَرَانِ رُوِيَا بِالْمَعْنَى، وَلَفْظُ الْقَبْلِ ثَبَتَ عَنْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ. فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»[2]، الْحَدِيثَ. وَاللَّفْظَانِ الْآخَرَانِ لَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعٍ

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٢٤) ح(٧٤١٨).

(٢) صحيح مسلم ح (٦١- (٢٧١٣)).

آخَرَ، وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِنَّمَا يَرْوِيهِ بِلَفْظِ الْقَبْلِ، كَالْحُمَيْدِيِّ(٣) وَالْبَغَوِيِّ(٤) وَابْنِ الْأَثِيرِ(٥)

فاللفظ المشكل هو رواية (غيره) وكذلك (معه) لكن (معه) اخف إشكالا من لفظ (غيره) وأما رواية (قبله) فليس فيها أي إشكال، لأن لفظ (غيره) يفيد انه لا يوجد شيء مخلوق، فكيف يجمع بين هذا وبين ما هو مقرر النصوص المتواترة من كونه تعالى لم يزل فعالا لما يريد. ولعل من رواه بالمعنى لم يتنبه للفارق، ومعلوم أن من أهم شروط جواز الرواية بالمعنى: أن يعلم الراوي معاني الألفاظ حتى لا يأت بلفظ يقصر عن المعنى أو يزيد، وإنما يأت باللفظ الذي يفيد نفس معنى اللفظ الذي أتى به الشارع بلا زيادة ولا نقصان.

فالظاهر - والله أعلم — صحة ما استظهره الشارح، وأن هذه الألفاظ (غيره - معه) لم تأت في حديث آخر، بينما جاءت لفظة (قبل) في استعمال الشرع عدة مرات فهو استعمال معروف، مثل (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء)(٦)، فلها أصل، أما لفظة غير فلم ترد؛ كما أنه قد يحتج بها المتكلمون فيما ذهبوا إليه من قولهم بأن الرب كان ولم يكن يفعل شيئا

---

(٣) الجمع بين الصحيحين (١/ ٣٥٣) ٥٥٨.

(٤) مصابيح السنة (٤/ ١٦) ح(٤٤٢٢).

(٥) جامع الأصول (٤/ ١٥) ح(١٩٨٨ - (خ ت)).

(٦) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٤) ح(٦١ - (٢٧١٣)).

ولم يكن يتصور منه فعل، بناء على مذهبهم في المنع من تسلسل الحوادث في الماضي(٧)، فيجعلون الرب معطلا عن الفعل، وقد أورد عليهم الفلاسفة أشكالا؛ فقالوا: إذا كان معطلنا عن الفعل فكيف صح منه الفعل بعد ذلك؟ وكيف صارت الحوادث ممكنة بعدما كانت ممتنعة؟ فإن قلتم حل بالرب شيء من الحوادث كأن يحدث له كمال لم يكن من قبل فهذا لا يجوز اعتقاده، وكذلك حلول الحوادث بإطلاق أنتم لا تجيزونها.

والمقصود هنا: أن لفظة (قبل) تتناسب مع بقية الأحاديث.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اللَّفْظِ تَعَرُّضٌ لِابْتِدَاءِ الْحَوَادِثِ، وَلَا لِأَوَّلِ مَخْلُوقٍ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ (يُقَالُ)(٨): «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ أَوْ مَعَهُ أَوْ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**». **فَأَخْبَرَ عَنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِالْوَاوِ.**

---

(٧) وقد تأثر بهم ابن حجر في ذلك انظر كلامه على هذا الحديث في فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤١٠) وهي من المسائل العقدية المنتقدة على ابن حجر، انظر: تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري (١٣/ ٤١٠)، التنبيه على المخالفات العقدية في فتح الباري (ص: ٦٩).

(٨) كذا في نسخة شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ١٣٥)، شرح الطحاوية ت الأرناؤوط (١/ ١١٥)، وأما في نسخة شرح الطحاوية – ط

وهذا يبين أنه حتى لو صحت هذه الألفاظ فالمقصود به أي من هذا العالم الذي نحن جزء منه، (لم يكن شيء غيره) أي من هذا العالم الذي نحن جزء منه السموات والأرض، أما العرش فقد كان قبل ذلك كما في هذا الحديث (وكان عرشه على الماء)، ففيه بيان أن العرش كان موجودا.

وَ«خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» رُوِيَ بِالْوَاوِ وَبِثُمَّ، فَظَهَرَ أَنَّ مَقْصُودَهُ إِخْبَارُهُ إِيَّاهُمْ بِبَدْءِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الَّتِي خُلِقَتْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، لَا ابْتِدَاءِ خَلْقِ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَذَكَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى خَلْقِهِمَا، وَذَكَرَ مَا قَبْلَهُمَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ وَوُجُودِهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِابْتِدَاءِ خَلْقِهِ لَهُ.

الخلاصة: أن أفعال الرب تبارك وتعالى ليس لها أول، فلا تستطيع أن تقول: أول فعل فعله الرب هو كذا!؛ لأنه لا أول لذاته وكذلك لا أول لأفعاله وصفاته(٩)، فهو سبحانه لم يزل فعالا لما يريد، ولكن يمكنك أن

الأوقاف السعودية (ص: ٩١) فقد جاء بلفظ (قال)، وكذلك هو في مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ١٧٧)، مجموع الفتاوى (١٨/ ٢١٧) وهو أصل هذا النقل.

(٩) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٥٦).

تقول عن المخلوقات: كل صنف أو جنس فهو مسبوق بالعدم، العرش وما دونه. ولا يلزمنا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم، لأنهم يقولون بقدم هذا العالم، ونحن نقول بقدم أفعال الله، لم يزل الله فعالا لما يريد(١٠)، وأما هذا العالم فمخلوق في ستة أيام﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤]، وهو مسبوق بالعدم، فما من مخلوق إلا وهو مسبوق بالعدم(١١).

---

(١٠) وهذا ينبني على أن ما يقوم به (سبحانه) من ذلك هل كله مسبوق بالعدم أو لم يزل ذلك يقوم به؟ وفيه لهم قولان:

أحدهما: أنه مسبوق بالعدم كما تقوله الكرامية وغيرهم.

الثالث: أنه ليس مسبوقا بالعدم وهو مذهب أكثر أهل الحديث وكثير من أهل الكلام والفقه والتصوف. شرح العقيدة الأصفهانية (ص: ١٢٠-١٢١) كذا في المطبوع (الثالث) ولعل صوابه (الثاني).

(١١) انظر: مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء - تحقيق أنور الباز) (١٢/ ٢٢٨) درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ٣٦٧)، درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٣/ ٢٥٦). مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ١٩٤)، وأما تعميم ذلك على كل المخلوقات فيقال مثلا: جنس الحوادث مسبوق بالعدم، فانظر رد ذلك في مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ١٨٠) الوجه الحادي عاشر وما بعده من شرح حديث عمران بن حصين. ومع ذلك لو: "قدر دوام الخالقية لمخلوق بعد مخلوق، فهذا لا ينافي أن

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ قَدْ وَرَدَ بِهَذَا وَهَذَا، فَلَا يُجْزَمُ بِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِدَلِيلٍ، فَإِذَا رَجحَ أَحَدُهُمَا فَمَنْ جَزَمَ بِأَنَّ الرَّسُولَ أَرَادَ الْمَعْنَى الْآخَرَ فَهُوَ مُخْطِئٌ قَطْعًا، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْآخَرِ، فَلَا يَجُوزُ إِثْبَاتُهُ بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ مَعْنَى الْحَدِيثِ، وَلَمْ يَرِدْ (كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ) مُجَرَّدًا، وَإِنَّمَا وَرَدَ عَلَى السِّيَاقِ الْمَذْكُورِ، فَلَا يُظَنُّ أَنَّ مَعْنَاهُ الْإِخْبَارُ بِتَعْطِيلِ الرَّبِّ تَعَالَى دَائِمًا عَنِ الْفِعْلِ حَتَّى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ، أَوْ مَعَهُ، أَوْ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» ، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى مَوْجُودٌ وَحْدَهُ لَا مَخْلُوقَ مَعَهُ أَصْلًا، لِأَنَّ قَوْلَهُ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» . يَرُدُّ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ وَهِيَ: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ إِمَّا حَالِيَّةٌ، أَوْ مَعْطُوفَةٌ، وَعَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ

يكون خالقا لكل شيء، وكل ما سواه محدث مسبوق بالعدم، ليس معه شيء سواه قديم بقدمه، بل ذلك أعظم في الكمال والجود والأفضال". الرد على المنطقيين (ص: ١٤٧).

مَوْجُودٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَعُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ"(١٢).

قَوْلُهُ: (لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوب، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوق)(١٣) .

ش: يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ الرَّبُّ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَرْبُوبٌ، وَمَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ خَالِقٌ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَخْلُوقٌ

المعنى المراد هنا هو: أن مخلوقاته لا تكسبه أي كمال ﷻ(١٤)، فلا يقال مثلا أنه اكتسب الكمال والقدرة لما خلق السماء والأرض، كما نقول في البشر حين يبدع شخص في شيء فيقال: هذا صار عبقريا، وكلما أبدع كلما استفاد وصفا وهكذا. أما الرب فهو أزلا موصوف بكل صفات الكمال، ولذلك فالوصف بالصفات قد يكون بالفعل وقد يكون بالقوة

---

(١٢) ما بين علامتي التنصيص من مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية – رشيد رضا (٥/ ١٧٤-١٧٩) بشيء من التصرف.

(١٣) ما بين علامتي التنصيص من مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية – رشيد رضا (٥/ ١٧٤-١٧٩) بشيء من التصرف.

(١٤) "فما كمل بإيجاد مخلوقاته بل وجدت مخلوقاته عن كماله".درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٩/ ٤١٧)، وانظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٢٠٧)، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٥٦٤).

والقدرة، فمثلا: من كان موصوفا بأنه كاتب فلك أن تصفه بذلك في أي وقت وإن لم يكن يفعل الكتابة في حال وصفك له(١٥)، ومن كان متكلما فلك أن تصفه بذلك في أي وقت وإن لم يكن يمارس الكلام أثناء وصفك له بذلك، بخلاف من لم يكن قادرا على الكتابة والكلام قبل ذلك ثم قدر بعد ذلك، فلا يصح لك أن تصفه بهما إلا بعد قدرته عليهما.

فنقول أن الرب موصوف بالقدرة والخلق والإرادة والرحمة ونحو ذلك، ولو لم يكن قد وجد من يتعلق به أثر تلك الصفة، مع أنه كما ذكرنا سابقا أن أفعال الرب لم تزل، لكن لا ينبغي أن يتوهم أنه يكسب صفات لم يوصف بها، فهو سبحانه له الكمال أزلا وأبدا، فلا يمكن أن يقال أنه يكتسب كمالا على مر الأيام، كما أنه لا يكتسب معلومات لم يكن يعلمها من قبل، بل هو سبحانه يعلم المخلوقات قبل أن تخلق ولهذا جاء في الحديث «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»(١٦)؛ فما هو كائن إلى يوم القيامة كان معلوما للرب قبل وجوده، وقد كتب القلم كل شيء بالتفصيل، من حيث الخلق

---

(١٥) انظر: شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ١٢٥).

(١٦) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٢٤) ح(٣٣١٩) وقال الترمذي: "حسن صحيح غريب"، مسند أحمد ط الرسالة (٣٧/ ٣٧٨) ح(٢٢٧٠٥) واللفظ له.

وصفاتهم،﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ولهذا ضلل أهل العلم أهل البدع القائلين بعقيدة البداء(١٧)؛ والبداء هي عقيدة مأخوذة من اليهود(١٨) – واليهود متناقضون هنا حيث يقررون البداء في مواضع من التوراة ثم يرفضون القول بالنسخ زاعمين أنه يلزم منه

(١٧) "وكل الروافض إلا شرذمة قليلة يزعمون أنه يريد الشيء ثم يبدو له فيه". مقالات الإسلاميين ت زرزور (١/ ٤٨)، ونقله عنه شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٣٦)، وانظر: مقالات الإسلاميين ت زرزور (١/ ٤٩)، منهاج السنة النبوية (١/ ٧٣)، (٢/ ٣٩٥)، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها (١/ ٤٤٣).

(١٨) انظر: بذل المجهود في إفحام اليهود ت طويلة (ص: ١١٤)، وفي بعض كتب اليهود: " ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه جداً فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته لأني حزنت أني عملتهم"انظر: الكتاب المقدس، الإصحاح السادس، سفر التكوين. نقلا عن: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها (١/ ٤٤٨)، التحرير والتنوير (١/ ٥٧١).

القول بالبداء على الله [١٩]- ، يقولون كان الله سيفعل كذا ثم بدا له ألا يفعل وهكذا، وهذا القول قالوا أنه قاله المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان كذابا ادعى النبوة، مع أنه أخذ بثأر الحسين، لكن استغل أولئك الناس وادعى النبوة، فكان يخبر بالخبر أنه سيقع فإذا لم يقع، اعتذر قائلا: "قد بدا لربكم"[٢٠].

واليهود رفضوا القول بالنسخ - أن الله ينسخ شريعة نبي بشريعة نبي آخر - قالوا لأنه يلزم منه البداء، وهذا ليس بلازم في حق الله، بل ولا يلزم حتى في حق البشر فالبشر أحيانا يضعون نظاما محددا لفترة من الزمن وبعد انقضائها يغيرونه، ولا يعني ذلك أنه بدا لهم بل هم يعرفون فترة صلاحية ذلك النظام ونهايته، ولله المثل الأعلى فهو سبحانه يعلم ما يصلح عباده من الشرائع في كل فترة من الزمن ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ

---

(١٩) انظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢/ ٤٣١)، تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/ ٥٤١)، الرد على الدكتور عبد الواحد وافي في كتابه بين الشيعة وأهل السنة (ص: ١٨٢).

(٢٠) انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٣٦)، البصائر والذخائر (٧/ ٢٥٤)، الملل والنحل (١/ ١٤٨-١٤٩).

مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، أي ألم تعلم أيها المنكر للنسخ[٢١] أن الله على كل شيء قدير.

(٢١) انظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٢/ ٢٩٦).

قَالَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ الشَّارِحِينَ: وَإِنَّمَا قَالَ: لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَمَعْنَى الْخَالِقِ دُونَ الْخَالِقِيَّةِ(١)، لِأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُخْرِجُ لِلشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لَا غَيْرَ، وَالرَّبُّ يَقْتَضِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، وَهِيَ: الْمُلْكُ وَالْحِفْظُ وَالتَّدْبِيرُ وَالتَّرْبِيَةُ وَهِيَ تَبْلِيغُ الشَّيْءِ كَمَالَهُ بِالتَّدْرِيجِ، فَلَا جَرَمَ أَتَى بِلَفْظٍ يَشْمَلُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ، وَهِيَ الرُّبُوبِيَّةُ. انْتَهَى. وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ الْخَلْقَ يَكُونُ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ أَيْضًا(٢).

فليس معنى الخلق: الإيجاد من العدم فقط، بل من معانيه التقدير ولهذا يقول الله تبارك وتعالى﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] فجمع في الخالقين وهذا لا يمكن أن يكون معنى الخالقين هنا الموجدين للأشياء من العدم؛

(١) قلت: هذا جواب والجواب الثاني أن يقال: قد ورد في بعض نسخ الطحاوية وفي نسخ بعض الشراح وفي كلام بعض أهل العلم الذين نقلوا عقيدة الطحاوي بهذا اللفظ: "ومعنى الخالقية ولا مخلوق" كما أشرت في تعليق سابق.

(٢) ما بين علامتي التنصيص من مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية – رشيد رضا (٥/ ١٧٤-١٧٩) بشيء من التصرف.

لأن الذي يوجد الأشياء من العدم واحد وهو الله تعالى، لكن الخالقين هنا بمعنى المقدرين[٣]، فكل صاحب صنعة يقدر فيما يتعلق بصنعته، وقد يتحقق ما قدره وقد يزيد أو ينقص، لكن تقدير الله لا يتخلف بل يكون مطابقا قال تعالى﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ولهذا قال الله تعالى﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]فالمراد بالخالق هنا الموجد من العدم، أما قوله﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فالمقصود به المقدرين، ولكن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على أن العبد يخلق أفعاله، وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأن الخلق هنا بمعنى التقدير. نعم في

---

(٣) ذكر الشارح هذا المعنى في آخر الكتاب شرح الطحاوية - ط دار السلام (ص: ٤٣٨)، وانظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٩/ ١٩)، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل (ص: ٣٥٠)، المغني للإمام المتولي (ص: ٣٨)، حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر (ص: ٧٠)، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١/ ٢٢١)، أبكار الأفكار في أصول الدين (٢/ ٢٤٤).

الحديث «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبة، وليخلقوا ذرة»[(٤)]، المقصود يقدر[(٥)].

قَوْلُهُ: (وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَ مَا أَحْيَا، اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الْخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ).

ش: يَعْنِي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ مُحْيِي الْمَوْتَى قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَالِقٌ قَبْلَ خَلْقِهِمْ، إِلْزَامًا لِلْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ، كَمَا حَكَيْنَا عَنْهُمْ فِيمَا تَقَدَّمَ. وَتَقَدَّمَ تَقْرِيرُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

ثُبُوتُ صِفَاتِهِ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ خَلْقِهِ وَالرَّدُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ

قَوْلُهُ: (ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

---

(٤) صحيح البخاري (٧/ ١٦٧) ح(٥٩٥٣).

(٥) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٢/ ٧١)، شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٧٧).

ش: ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِ صِفَاتِهِ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ خَلْقِهِ. وَالْكَلَامُ عَلَى (كُلٍّ) وَشُمُولِهَا، وَشُمُولِ كُلٍّ [فِي كُلِّ] مَقَامٍ بِحَسَبِ مَا يَحْتَفُّ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ، يَأْتِي فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

عند الرد على المعتزلة في استدلالهم بقوله تعالى﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، [الرعد: ١٦]، [الزمر: ٦٢]، [غافر: ٦٢] على أن القرآن مخلوق لأنه شيء، وهناك سيرد المؤلف بأن كل تفهم في كل سياق بحسبه، وتفيد العموم بحسب ذلك وليس مطلقا، كما قال تعالى﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] أي بحسب قدرة الرياح وبحسب أمر الله عز وجل، وإلا فهي لم تدمر السماء ولا الأرض ولا حتى بيوت الكفار لأن الله قال ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال عن بلقيس ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ومعلوم أنه ليس معها ملك سليمان، فهي في اليمن وسليمان عليه السلام في الشام، ولم تسخر لها الريح وهكذا، ولكن أعطيت كل ما تحتاجه كملكة لثبوت ملكها(٦).

---

(٦) وذلك في قوله: " وَعُمُومُ كُلٍّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالْقَرَائِنِ ...الخ" انظر: شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ١٧٣) وقد ذكر هذا المعنى الإمام أحمد في الرد على الجهمية والزنادقة (ص: ١١٥)، وشيخ الإسلام ابن

فيكون المقصود بقوله تعالى ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾أي مما هو قابل ليكون مخلوقا، أما صفاته تعالى كقدرته وعلمه وحياته وإرادته وسمعه وبصره فلا يمكن أن تدخل تحت هذا العموم.

ويقال للمعتزلة: لم أدخلتهم صفة الكلام فقط في هذا العموم؟! يلزمكم أن تدخلوا قدرته وعلمه وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر الصفات، لأنها تسمى شيء، فيلزمكم أن تكون صفاته كلها مخلوقه، ويلزمكم أن تكون ذاته مخلوقة، تعالى الله عن ذلك.

وَقَدْ حَرَّفَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، "فَقَالُوا[٧]: إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ، وَأَمَّا نَفْسُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ، وَتَنَازَعُوا: هَلْ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهَا أَمْ لَا؟ ! وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى مَا قَالُوا لَكَانَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَعْلَمُهُ، وَخَالِقٌ لِكُلِّ مَا يَخْلُقُهُ، وَنَحْوَ

تيمية في بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٧/ ٤٢٨) وما بعدها، مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٣٢).

(٧) أي "القدرية من الإمامية والمعتزلة وغيرهم" منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩١).

ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ فِيهَا"[٨]. فَسَلَبُوا صِفَةَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

"وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ فَهُوَ مُنْدَرِجٌ فِي هَذَا. وَأَمَّا الْمُحَالُ لِذَاتِهِ، مِثْلُ كَوْنِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مَوْجُودًا مَعْدُومًا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذِهِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ، وَلَا يُسَمَّى شَيْئًا، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: خَلْقُ مِثْلِ نَفْسِهِ، وَإِعْدَامُ نَفْسِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ"[٩]

فلو قلنا: الله على كل شيء قدير فجاء متفلسف يقول: فهل يستطيع أن يخلق مثل نفسه؟! فالجواب: أن هذا مستحيل؛ لأن الذي هو مثل نفسه لا بد أن يكون غير قابل لأن يكون مخلوقا، فكيف تقول يخلق مثل نفسه، فإذا كان مخلوقا فلن يكون مثل نفسه[١٠].

فالأمور المستحيلة أو الممتنعة فرضها باطل لأنها ليست شيئا حتى يقال هل الله قادر عليها أم لا؟! ومن ذلك أن يكون الشيء موجودا معدوما

---

(٨) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩١).

(٩) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٩٣).

(١٠) انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٦٩).

في وقت واحد فهذا محال، لكن أن يعدم الموجود أو يوجد المعدوم فهذا الله قادر عليه وكل هذا معقول، فالله على كل شيء قدير أي مما هو ممكن الوجود أو ممكن العدم[١١]، أما أن يوجد مثل نفسه أو يعدم نفسه فهذا مستحيل. ولذلك فهذه العبارات تفهم في إطار ما هو ممكن عقلا.

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ التَّامَّةِ، فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلَّا مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الْمَعْدُومُ الْمُمْكِنُ لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي الْخَارِجِ

"وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي الْمَعْدُومِ الْمُمْكِنِ: هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا؟"[١٢] وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ الْمَعْدُومَ لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي الْخَارِجِ[١٣]، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَيَكْتُبُهُ، وَقَدْ يَذْكُرُهُ وَيُخْبِرُ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ

---

(١١) انظر: منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٨٨) وما بعدها.

(١٢) ما بين علامتي التنصيص من منهاج السنة النبوية (٢/ ٢٨٩).

(١٣) "والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف: أن المعدوم ليس في نفسه شيئاً وأن ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم، قال الله تعالى لزكريا ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧] فأخبر أنه لم يك شيئاً." مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٤/ ١٤).

﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فَيَكُونُ شَيْئًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالْكِتَابِ، لَا فِي الْخَارِجِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] ، أَيْ: لَمْ تَكُنْ شَيْئًا فِي الْخَارِجِ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا فِي عِلْمِهِ تَعَالَى. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

المعدوم إن كان يمكن وجوده فيمكن الاخبار عنه[١٤]، ويوصف الرب بالقدرة عليه، مثال ذلك أن يقال أن الله قادر على أن يستبدلنا بأناس غيرنا كما قال تعالى﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]، [فاطر: ١٦]، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، فهذا ممكن ولكنه غير واقع، فهذا يوصف الله بالقدرة عليه، ولكنه غير واقع لعدم إرادته له، فلا تزال هذه الأمة ولله الحمد هي الأمة التي اختارها الله عز وجل. ومثله ما يخبر الله عنه قبل أن يوجد فيصفه كأنه موجود، كما يخبر عن الساعة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

---

(١٤) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٨٥).

عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]، فهي إلى الآن لم تأت ولكنه يخبر عنها كأنها موجودة، وكما يخبرنا عن مصير الجبال يوم القيامة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧] ويتحدث عن أحوال الناس ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدث عما سيقع في المستقبل، ومنه قوله تعالى عن الإنسان ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ما هو هذا النفي: لم يكن شيئا مذكورا؟ أي لم يكن شيئا مذكورا في الواقع أما في العلم فهو موجود، أن الله سيوجد هذا الإنسان، آدم ثم ذريته، لم يكن شيئا مذكورا أي في الخارج، أما في الكتاب، أما في علم الله فله وجود، ولكن ليس وجود ذات بل وجود علم، ومنه قولنا: أن النبي عليه الصلاة والسلام كان موجودا في التورات، فالمقصود: ذكره وصفته وليس ذاته، فذاته كانت غير موجودة في ذلك الحين(١٥)، ولهذا

(١٥) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٨٣).

جاء في الحديث « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»[١٦] أي: كنت نبيا أي في العلم في علم الله قبل أن يخرج آدم إلى الوجود كإنسان حي.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، رَدٌّ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا شَبِيهٌ. فَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ - فَلَيْسَ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ كَسَمْعِ الرَّبِّ وَبَصَرِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَةِ تَشْبِيهٌ، إِذْ صِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

---

(١٦) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٢٩) ح(٣٦٥٥٣)، شرح مشكل الآثار (١٥/ ٢٣١) ح(٥٩٧٧)، الإبانة الكبرى لابن بطة (٣/ ٢٢١) وصححه محققه د: (عثمان عبد الله آدم الأثيوبي)، وهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٨٥) ح(٣٦٠٩) وقال: " هذا حديث حسن غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه" وفي طبعة سنن الترمذي - الرسالة (٦/ ٢٠٦) قال: " هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أبي هريرة، لا نعرفه إلا من هذا الوجه "وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٦٠٤).

أنت – أيها السني –عندما تصف الله بما وصف به نفسه يقول لك المخالفون: أنك مشبه(١٧)، فإذا قلت أن الله سبحانه وتعالى سميع بسمع بصير ببصر له يد ووجه، يقولون: هذا تشبيه أنتم مشبهة(١٨).

فنقول: لا، التشبيه أن تقول: له سمع كسمعي وبصر كبصري ويد كيدي، فهذا هو التشبيه(١٩)، ومن شبه الله بهذه الصفة فهو كافر(٢٠)، وقد كذب القرآن؛ لأن الله يقول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وليس فيما أثبته الله لنفسه من الصفات تشبيه؛ لأنه سبحانه وتعالى

---

(١٧) "وابن سينا وأمثاله مقرون بأن الكتب الإلهية إنما جاءت بما يوافق مذهب المثبتة للصفات والعلو لا بما يناقض ذلك وهم يسمون ذلك تشبيها ويقولون الكتب الإلهية إنما جاءت بالتشبيه" درء تعارض العقل والنقل ط–أخرى (٦/ ١٠٤).

(١٨) " قال إسحاق بن راهوية إنما يكون التشبيه إذا قال يد مثل يدي أو سمع كسمعي فهذا تشبيه " العلو للعلي الغفار (ص: ١٩٨).

(١٩) وقد سبق قول الشارح " قال خلق كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة " شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: ١١٨) وانظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث (٢٧/ ٢)، الحجة على تارك المحجة لابن طاهر المقدسي (٢/ ٧١١)، العلو للعلي الغفار (ص: ١٩٠).

(٢٠) كما سيأتي قريبا في كلام نعيم بن حماد الخزاعي.

لا بد أن نثبت له صفات الكمال، وهي التي عرفناها عن طريق الوحي كتابا وسنة، وعرفنا معانيها من لغة العرب(٢١).

فمثلا حين نقول حي وميت نعرف معنى حي ومعنى ميت، وكذلك نعرف المراد من لفظ موجود ومعدوم، فمن وصف الله بأنه معدوم أو ميت فهذا كفر، ولكن عندما نصفه بأنه حي موجود فهذه صفات كمال، فنحن نعلم - بما آتانا الله من العقول، وبما علمنا الله من اللغة — ما هي الكلمات التي تفيد مدحا، وما هي الكلمات التي تفيد ذما.

فإذا: الله تعالى موصوف بما وصف به نفسه، وهو أعلم بنفسه، وكذلك عندما يصف نفسه بأن له يد أو وجه لا يجوز أن تفهم منها أنها كيدك أو كوجهك! وإنما هي ثابتة لله كما يليق بجلاله سبحانه، كعلمه وقدرته وإرادته سبحانه، بل كذاته فلا بد من إثبات ذات لله عز وجل تخالف

---

(٢١) واعتقاد " أن مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها. أنه لا يفهم أحد معانيها ... وهذا ضلال عظيم" شرح حديث النزول (ص: ٦٥)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٦٧).

الذوات[٢٢]، فإذا لم نثبت ذاتا لله كنا كالشيوعيين[٢٣] فنلحد ونقول أن الله ليس موجودا.

فلا بد من إثبات الذات لله تعالى؛ وإذا أثبتنا الذات لله عز وجل وأنه غير هذا العالم وغير هذا الكون فقد أثبتنا موجودا، وأثبتنا هذا العالم موجودا، فالله موصوف بالوجود وهذا العالم موصوف بالوجود، ولكن ليس وجود الله كوجود العالم، ولا يقتضي هذا الإثبات تشبيها، فما وصف الله به نفسه في القرآن فهو لا يقتضي تشبيها أبدا.

(٢٢) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١/ ٢٣٠)، (٢/ ٤٢٦).

(٢٣) نسبة إلى الشيوعية وهي: مذهب فكري يقوم على الإلحاد، وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي.انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٩١٩)، كواشف زيوف (ص: ٨٦).

وكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فصفه به وأنت مطمئن مرفوع الرأس، وليس عليك شيء، بل لك حجة بين يدي الله عز وجل، تقول: يا رب أنت قلت كذا وأنا لم أتجاوز النص، أنت أخبرتنا بصفاتك من سمع وبصر وعلم وقدرة وحياة ووجه ويد وغضب وإتيان ومجيء ونحو ذلك في القرآن الكريم بلسان عربي مبين وهو كلامك فلا نتجاوز ذلك، بل نصفك بما وصفت به نفسك(٢٤).

---

(٢٤) وقد لخص هذا المعنى ابن قيم الجوزية في نونيته = الكافية الشافية (ص: ١٧٠) بقوله:

والآخرين أتوا بما قد قاله ... من غير تحريف ولا كتمان
قالوا تلقينا عقيدتنا عـــــ ... ـــــن الوحيين بالأخبار والقرآن
فالحكم ما حكما به لا رأي أهـــ ... ـــل الاختلاف وظن ذي الحسبان
آراؤهم أحداث هذا الدين نا ... قضة لأصل طهارة الإيمان
آراؤهم ريح المقاعد أين تلك ... الريح من روح ومن ريحان
قالوا وأنت رقيبنا وشهيدنا ... من فوق عرشك يا عظيم الشان
إنا أبينا أن ندين ببدعة ... وضلالة أو إفك ذي بهتان
لكن بما قد قلته أو قاله ... من قد أتانا عنك بالفرقان
وكذاك فارقناهم حين احتيا ... ج الناس للأنصار والأعوان
كيلا تصير مصيرهم في يومنا ... هذا ونطمع منك بالغفران

فلو قال قائل: هذا مجاز وليس حقيقة.

فقل له: الأصل في الكلام الحقيقة، ثم ما دليلك على أنه مجاز؟

ثم قل له: وماذا تقول لو قال قائل: الصلاة مجاز والصيام مجاز والحج مجاز!!

ماذا ستقول؟

فمن الذي منا أحق بأمنه ... فاختر لنفسك يا أخا العرفان

لا بد نلقاه نحن وأنتم ... في موقف العرض العظيم الشان

وهناك يسألنا جميعا ربنا ... ولديه قطعا نحن مختصمان

فنقول قلت كذا وقال نبينا ... أيضا كذا فإمامنا الوحيان

فافعل بنا ما أنت أهل بعد ذا ... نحن العبيد وأنت ذو الإحسان

أفتقدرون على جواب مثل ذا ... أم تعدلون على جواب ثان

ما فيه قال الله قال رسوله ... بل فيه قلنا مثل قول فلان

وهو الذي أدت إليه عقولنا ... لما وزنا الوحي بالميزان

إن كان ذلكم الجواب مخلصا ... فامضوا عليه يا ذوي العرفان

تالله ما بعد البيان لمنصف ... إلا العناد ومركب الخذلان

لا شك أنه سيكفر من قال الصلاة مجاز، وأنها ليست الصلاة التي نعرفها، وكذلك القول في البقية، فسيكفره[٢٥]؛ لأنه أنكر معلوما من الدين بالضرورة.

فنقول وكذلك هذه الصفات هي معلومة من الدين بالضرورة[٢٦].

---

(٢٥) كما قال بذلك الباطنية حيث قالوا: "الطهور: هو التبري والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى مبايعة الامام، الصيام: هو الامساك عن كشف السر، الكعبة: هي النبي، والباب: علي، الصفا: هو النبي، والمروة: علي، والميقات: هو الاساس، والتلبية: إجابة الداعي، والطواف بالبيت سبعا: هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، والصلوات الخمس: أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام، فالفجر دليل السابق، والظهر دليل التالي، والعصر دليل للأساس، والمغرب دليل الناطق، والعشاء دليل الإمام، وكذلك زعموا أن المحرمات عبارة عن ذوي الشر من الرجال وقد تعبدنا باجتنابهم، كما أن العبادات عبارة عن الأخيار الأبرار الذين أمرنا باتباعهم" فضائح الباطنية (ص: ٥٦).

(٢٦) "الأمور السمعية التي يقال: إن العقل عارضها كإثبات الصفات والمعاد ونحو ذلك، هي مما علم بالاضطرار أن الرسول صلي الله عليه وسلم جاء بها، وما كان معلوما بالاضطرار من دين الإسلام امتنع أن يكون باطلاً، مع كون الرسول رسول الله حقاً، فمن قدح في ذلك وادعي أن الرسول لم يجيء به، كان قوله معلوم الفساد بالضرورة من دين المسلمين." درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٩٥).

وَلَا تَنْفِ عَنِ اللَّهِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا وَصَفَهُ بِهِ أَعَرَفُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، وَأَنْصَحُهُمْ لِأُمَّتِهِ، وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْبَيَانِ. فَإِنَّكَ إِنْ نَفَيْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُنْتَ كَافِرًا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

هذه مسألة مهمة: فالنبي عليه الصلاة والسلام أنصح وأفصح وأعلم[١]، وهنا يأتي سؤال:

لماذا لا يصف النبي عليه الصلاة والسلام ربه بما وصفه به الفلاسفة والمتكلمون؟!

لماذا لم يقل: أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض[٢]، ولا ذي رائحة ولا مجسة ولا ذي طعم ولا ذي لون، ولا ذي أعراض ولا أبعاض ولا أغراض، ولا ذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا يوجد في جهة ولا هو فوق ولا

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٦٥١).

(٢) كما يقول ذلك الأشاعرة ومن وافقهم انظر: غاية المرام في علم الكلام (ص: ١٧٩).

تحت ولا يمين[٣] ...، لماذا الرسول عليه الصلاة والسلام لم يصف ربه بهذه الصفة؟!(٤).

فيقال – للذي يرى أن الحق هو هذا الكلام والوصف –: أنت مخير بين أن تقول: أن الرسول عليه الصلاة والسلام علم هذا وكتمه فهو لم يبلغ.

أو علمه وأراد أن يعبر عنه فأخطأ فيكون غير فصيح.

أو أنه علمه وقدر على التعبير عنه ولكنه غش أمته ولم يرد أن يعلم الناس العقيدة الصحيحة.

أو لم يعلمه فهو جاهل![٥].

لقد قال قائلهم من القاسمية – ونقل ذلك ابن الوزير في كتابه العواصم والقواصم[٦] — أنه أعلم بالله من الرسول عليه الصلاة والسلام، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: أنا أحسن علم الكلام وهو لا يحسنه، – نسأل الله العافية –.

---

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ت زرزور (١/ ١٣٠). حيث جعله مما أجمعت عليه المعتزلة.

(٤) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٦٥١).

(٥) انظر: المصدر السابق (٣/ ٨٦٨).

(٦) انظر: العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٤/ ٩٦).

وهذا كله مستحيل وباطل وغير صحيح؛ حيث والمتكلم عليه الصلاة والسلام في غاية العلم وفي غاية البيان وفي غاية النصح وجب أن يحصل المراد ويحصل المعنى الذي أراده المتكلم.

فلم يتكلم الرسول عليه الصلاة والسلام باصطلاحات أهل الكلام؛ لأن علم الكلام باطل وما أنزل الله به من سلطان.

ثم كيف يعقل أن يأتي القرآن كله عكس ما يقوله المتكلمون، ثم يكون الحق هو ما قالوه!، (لا شك أن من قال ذلك فقد نسب) الكتاب والسنة إلى الغش والتلبيس[٧].

وَإِذَا وَصَفْتَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَلَا تُشَبِّهْهُ بِخَلْقِهِ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَإِذَا شَبَّهْتَهُ بِخَلْقِهِ كُنْتَ كَافِرًا بِهِ.

(٧) انظر: المصدر السابق (٣/ ١١٧٧).

قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفرَ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا[٨].

---

(٨) رواه الذهبي في العلو للعلي الغفار (ص: ١٧٢) أثر (٤٦٤) واستحسنه وصححه الذهبي في سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٣/ ٢٩٩)، كما صححه الألباني في مختصر العلو للعلي العظيم (ص: ١٨٤) قال الذهبي معلقا على هذا الأثر: " قلت: هذا الكلام حق، نعوذ بالله من التشبيه، ومن إنكار أحاديث الصفات، فما ينكر الثابت منها من فقه، وإنما بعد الإيمان بها هنا مقامان مذمومان:

تأويلها وصرفها عن موضوع الخطاب، فما أولها السلف، ولا حرفوا ألفاظها عن مواضعها، بل آمنوا بها، وأمروها كما جاءت.

المقام الثاني: المبالغة في إثباتها، وتصورها من جنس صفات البشر، وتشكلها في الذهن، فهذا جهل وضلال، وإنما الصفة تابعة للموصوف، فإذا كان الموصوف -عز وجل- لم نره، ولا أخبرنا أحد أنه عاينه مع قوله لنا في تنزيله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فكيف بقي لأذهاننا مجال في إثبات كيفية البارئ - تعالى الله عن ذلك - فكذلك صفاته المقدسة، نقر بها ونعتقد أنها حق، ولا نمثلها أصلا ولا نتشكلها." سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٠/ ٦١٠).

وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ الطَّحَاوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ) [٩].

الْمَثَلُ الْأَعْلَى الْمُتَضَمِّنُ إِثْبَاتَ الْكَمَالِ هُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ

وَقَدْ "وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّ لَهُ الْمَثَلَ الْأَعْلَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]

الظاهر أن المثل يقصد به هنا الصفة في لغة القرآن يقصد بالمثل الصفة كما قال تعالى﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، [مُحَمَّد: ١٥] أي وصفها[١٠].

له المثل الأعلى أي الوصف الأعلى﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] أي الأوصاف تصفونه من عند أنفسكم، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

---

(٩) انظر: متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص: ٤٤)، متن العقيدة الطحاوية (ص: ٢٦).

(١٠) انظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٦/ ٤٦٩)، تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ٢٥).

تنبيه: قال الشيخ - رحمه الله -: سمعت مصطفى محمود في بعض برامجه يقول: هو ليس نعيما حقيقيا وإنما هو مثله، وهذا لا يصح.

﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠] أي وصف السوء، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]أي الوصف الأعلى(١١).

إذا المثل في اللغة يطلق على عدة معان ومنها الوصف(١٢)، فإذا قلنا أنه يطلق على الوصف زال الإشكال الذي قد يظهر للبعض في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إذا قلنا أن المثل هنا هو المثيل فسيكون معنى الآية أنه ليس له مثيل.

وسيقال: والكاف هنا ما معناها؟ حيث سيكون المعنى: ليس مثل مثله؛ لأن الكاف للتشبيه ومثل للتشبيه، أنت تقول: زيد كالأسد وتقول: زيد مثل الأسد.

لكن إذا قلنا أن المثل هنا بمعنى الوصف كان المعنى: ليس كوصفه وهذا واضح.

فَجعَلَ سُبْحَانَهُ مَثَلَ السَّوْءِ - الْمُتَضَمِّنَ لِلْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَسَلْبِ الْكَمَالِ - لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْثَانِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَثَلَ الْأَعْلَى - الْمُتَضَمِّنَ لِإِثْبَاتِ الْكَمَالِ كُلِّهِ - لِلَّهِ وَحْدَهُ. فَمَنْ سَلَبَ صِفَاتِ الْكَمَالِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ جَعَلَ لَهُ مَثَلَ السَّوْءِ، وَنَفَى عَنْهُ مَا وَصَفَ

---

(١١) انظر: الجامع لأحكام القرآن=تفسير القرطبي ط- أخرى (١٠/ ١١٩)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٠٥).

(١٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٥٨).

بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى، وَهُوَ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ، الْمُتَضَمِّنُ لِلْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ، وَالْمَعَانِي الثُّبُوتِيَّةِ، الَّتِي كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ فِي الْمَوْصُوفِ وَأَكْمَلَ - كَانَ بِهَا أَكْمَلَ وَأَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ

المتكلمون يقولون أن الله موجود وجود مطلق فقط(١٣)، وأكثر وصفهم لله بالسلوب وهو نفي بلا إثبات(١٤).

---

(١٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٢٢٠)، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ٢٦٨)، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٢/ ٧٦٢)، (٣/ ١١١٦)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٣٨٢).

(١٤) أي "بشرط سلب الأمور الثبوتية كلها كما قاله ابن سينا وأمثاله" درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ٢١٧).

أما الإثبات عندهم فأقصى ما يوجد في كلامهم هو إثبات الوجود بشرط الإطلاق[(١٥)]، ومعنى بشرط الإطلاق[(١٦)]: أي لا يقولون موجود في كذا مثلا موجود في السماء أو موجود على العرش لا يقولون بذلك بل يقولون

---

(١٥) "كما يذكر عن شيعة أفلاطون القائلين بالمثل الأفلاطونية" درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ٢١٦).

" مع العلم بصريح العقل أن المطلق بشرط الإطلاق أو بشرط سلب الأمور الثبوتية يمتنع وجوده في الخارج، فيكون الواجب الوجود ممتنع الوجود، وهذا الكفر المتناقض وأمثاله هو سبب ما اشتهر بين المسلمين أن المنطق يجر إلى الزندقة، وقد يطعن في هذا من لم يفهم حقيقة المنطق، وحقيقة لوازمه، ويظن أنه في نفسه لا يستلزم صحة الإسلام ولا فساده، ولا ثبوت حق ولا انتفاءه، وإنما هو آله تعصم مراعاتها عن الخطأ في النظر، وليس الأمر كذلك، بل كثير مما ذكروه في المنطق يستلزم: السفسطة في العقليات والقرمطة في السمعيات، ويكون من قال بلوازمه ممن قال الله تعالى فيه ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]". درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ٢١٧)، وأهل المنطق اليوناني " قد قرروا في منطقهم - ما لم ينازعهم فيه أحد من أهل الملل - أن المطلق بشرط الإطلاق إنما وجوده في الأذهان لا في الأعيان" درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٥/ ٥٥).

(١٦) وهو ما لا حقيقة له يتميز بها وانظر: مجموع الفتاوى (٢/ ١٦٣-١٦٨) فقد حرر شيخ الإسلام الكلام على هذا المصطلح وضرب له أمثلة وبين لوازمه.

موجود فقط، فإذا قيل لهم أين الله؟ رفضوا الجواب على ذلك وقالوا: الله موجود لا داخل العالم ولا خارجه. ولاشك أن هذا من الإلحاد(١٧).

---

(١٧) "الأقوال في وجود الحق على مراتب فمن قال: إنه وجود مطلق فقوله باطل بالبديهة، ومن قال: إنه يتميز بصفات سلبية مثل امتناع عدمه ونحو ذلك فهو نظيره بل هو هو، ومن قال: يتميز ببعض الصفات المعنوية كعلمه وقدرته، قيل له وإن اختص بذلك لكن لا بد من ذات موصوفة بتلك الصفة، وأن تكون الذات لها حقيقة في نفسها يتميز بها عن سائر الحقائق، وإن القول الرابع: وهو أن له حقيقة يختص بها هو الصواب" بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ط-أخرى (١/ ٣٤٧).

فالمؤلف هنا يقول أن صفاته تعالى صفات وجودية، لا كما يقول المتكلمون من كون الصفات سلوب وإضافات(١٨).

والمقصود بإضافات(١٩) يتضح بالمثال فنقول مثلا: الخلق لا يثبتونها كصفة قائمة بالله عز وجل، ولكن يقولون لما وجد المخلوق وصف الرب بأنه خالق، وهذا مثل وصف الأبوة والبنوة، فلم يوصف الأب بالأبوة إلا بعد أن صار له ابن، ولم يوصف الابن بالبنوة إلا وله أب.

---

(١٨) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ٥١) وما بعدها ففيها الرد على المعتزلة ومن وافقهم.

(١٩) الإضافات من التضايف وهو: كون الشيئين بحيث يكون تعلق كل واحد منهما سببا بتعلق الآخر به كالأبوة والبنوة وكون تصور كل واحد من الأمرين موقوفا على تصور الآخر. التعريفات ط- أخرى (ص: ٨٤)، وانظر: معيار العلم في فن المنطق (ص: ٣٢٠)، تهذيب فن المنطق (ص: ٢٩)، موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب (ص: ٩٠١،٧٠).

ولشيخ الإسلام "عبارات أخرى في معنى الأمور المتضايفة . انظر : الدرء ٢٨٤/١، واقتضاء الصراط المستقيم ١٦٢/١، ومناظرة في الحمد والشكر (مجموع الفتاوى) ١٤٧/١١، وجواب أهل العلم والإيمان (مجموع الفتاوى) ١٤٨/١٧، ١٤٩، ورسالة في الهلال (مجموع الفتاوى) ١٨٣/٢٥ ". تقريرات ابن تيمية في بيان ما يشكل من الرسالة التدمرية (ص: ١٤).

أهل السنة والجماعة يقولون: نثبت المعاني لله تعالى حقيقة كالسمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والمحبة والرضى والغضب[٢٠]، كل هذه صفات وجودية يثبتها أهل السنة، وأولئك لا يثبتون إلا السلوب والإضافات.

وَلَمَّا كَانَتْ صِفَاتُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتعَالَى أَكْثَرَ وَأَكْمَلَ، كَانَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَكَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ. بَلْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى الْمُطْلَقِ اثْنَانِ، لِأَنَّهُمَا إِنْ تَكَافَآ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَعْلَى مِنَ الْآخَرِ، وَإِنْ لَمْ يَتَكَافَآ، فَالْمَوْصُوفُ بِهِ أَحَدُهُمَا وَحْدَهُ، فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى مِثْلٌ أَوْ نَظِيرٌ"[٢١].

يستحيل أن يوصف بالوصف الأعلى اثنان، كيف تقول هذا أعلى وهذا أعلى؛ لأنهما سيكونان متساويان وحينئذ فلا أعلى، وهذا كما نقول:

---

(٢٠) انظر: شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/ ٣٣٧). ولشيخ الإسلام "عبارات أخرى في معنى الأمور المتضايفة. انظر: الدرء ١/٢٨٤، واقتضاء الصراط المستقيم ١/١٦٢، ومناظرة في الحمد والشكر (مجموع الفتاوى) ١١/١٤٧، وجواب أهل العلم والإيمان (مجموع الفتاوى) ١٧/١٤٨، ١٤٩، ورسالة في الهلال (مجموع الفتاوى) ٢٥/١٨٣ ". تقريرات ابن تيمية في بيان ما يشكل من الرسالة التدمرية (ص: ١٤).

(٢١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/١٠٣١- ١٠٣٢) بشيء من التصرف.

الواحد القهار، يستحيل أن يوصف به أكثر من واحد، كيف يكون واحدا قهارا وهناك من يقهره؟! فصفات الرب تبارك وتعالى صفات كمال ولا يمكن أن يتصف بها اثنان.

اخْتِلَافُ عِبَارَاتِ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى. وَوَفَّقَ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ بَعْضُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ، فَقَالَ: "الْمَثَلُ الْأَعْلَى يَتَضَمَّنُ: الصِّفَةَ الْعُلْيَا، وَعِلْمَ الْعَالَمِينَ بِهَا، وَوُجُودَهَا الْعِلْمِيَّ، وَالْخَبَرَ عَنْهَا وَذِكْرَهَا، وَعِبَادَةَ الرَّبِّ تَعَالَى بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الْقَائِمَةِ بِقُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ.

فَهَا هُنَا أُمُورٌ أَرْبَعَةٌ:

[الْأَوَّلُ] : ثُبُوتُ الصِّفَاتِ الْعُلْيَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سَوَاءً عَلِمَهَا الْعِبَادُ أَوْ لَا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَهَا بِالصِّفَةِ

فهذا مذهب لبعض السلف في تفسير المثل الأعلى بأنه الصفة(٢٢) فليس تفسيرا محدثا.

الثَّانِي: وُجُودُهَا فِي الْعِلْمِ وَالشُّعُورِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ: إِنَّهُ مَا فِي قُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ، مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ، وَمَحَبَّتِهِ

---

(٢٢) انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ص: ٢٢٦)، تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ٨٤)، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (ص: ٢٩١).

وَجَلَالِهِ، وَتَعْظِيمِهِ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَهَذَا الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ أَصْلًا، بَلْ يَخْتَصُّ بِهِ فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا اخْتَصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ مَعْنَاهُ: أَهْلُ السَّمَاوَاتِ يُعَظِّمُونَهُ وَيُحِبُّونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ كَذَلِكَ، وَإِنْ أَشْرَكَ بِهِ مَنْ أَشْرَكَ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ، وَجَحَدَ صِفَاتِهِ مَنْ جَحَدَهَا، فَأَهْلُ الْأَرْضِ مُعَظِّمُونَ لَهُ، مُجِلُّونَ، خَاضِعُونَ لِعَظَمَتِهِ، مُسْتَكِينُونَ لِعِزَّتِهِ وَجَبَرُوتِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

الثَّالِثُ: ذِكْرُ صِفَاتِهِ وَالْخَبَرُ عَنْهَا وَتَنْزِيهُهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالتَّمْثِيلِ.

الرَّابِعُ: مَحَبَّةُ الْمَوْصُوفِ بِهَا وَتَوْحِيدُهُ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ. وَكُلَّمَا كَانَ الْإِيمَانُ بِالصِّفَاتِ أَكْمَلَ كَانَ هَذَا الْحُبُّ وَالْإِخْلَاصُ أَقْوَى

فهذه أربعة معان:

المعنى الأول: صفاته القائمة بذاته.

المعنى الثاني: صفاته التي تقوم في شعورك فتعرفه بها من عظمة الله وإجلاله ونحو ذلك.

المعنى الثالث: هو ذكر صفاته والاخبار عنه.

المعنى الرابع: ما في قلبك من محبته سبحانه.

وكلها لا يجوز أن يشركه فيها أحد غيره.

فَعِبَارَاتُ السَّلَفِ كُلُّهَا تَدُورُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الْأَرْبَعَةِ"[٢٣] فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يُعَارِضُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧] وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ؟ وَيَسْتَدِلُّ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ[٢٤] وَيَعْمَى عَنْ تَمَامِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

نريد أن نعرف وجه المعارضة بين الآيتين عند هؤلاء القوم وبيان ذلك: أنهم كلما وصف الرب تبارك وتعالى بصفات الكمال الذي هو مقتضى

---

(٢٣) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/ ١٠٣٤-١٠٣٥).

(٢٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (١/ ١١٥)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨/ ٥٤٦)، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢٩٤) حيث أبطل الشيخان استدلال الجهمية بهذه الآية على نفي الصفات.

المثل الأعلى اعترضوا بقوله تعالى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيضربون تلك الآية بهذه الآية، فيقال لهم ليس الأمر ما تذهبون إليه بل قوله﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ ليس مانعا من وصفه بصفات الكمال بدليل آخر الآية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيها نفي كل وصف يماثل صفات المخلوقين عن الخالق، وليس المراد منها نفي الصفات مطلقا عن الله تعالى؛ لأنه لو أراد ذلك لما ختم الآية بإثبات الصفات ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، فتبين من ذلك أنه ليس المقصود من الآية نفي الصفات وإنما المقصود منها نفي المماثلة بين الله تعالى وبين خلقه، مع إثبات الصفات للرب تبارك وتعالى.

حَتَّى أَفْضَى هَذَا الضَّلَالُ بِبَعْضِهِمْ، - وَهُوَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَءادَ الْقَاضِي -، إِلَى أَنْ أَشَارَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى سِتْرِ الْكَعْبَةِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، حَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ لِيَنْفِيَ وَصْفَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[٢٥]. كَمَا قَالَ الضَّالُّ الْآخَرُ جَهْمُ بْنُ

(٢٥) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٤٧٩)، مجموع الفتاوى (١٣/ ١٨٤)، سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٠/ ٢٩٣).

صَفْوَانَ: وَدِدْتُ أَنِّي أَحُكُّ مِنَ الْمُصْحَفِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤][٢٦].

فهؤلاء فهموا من ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أنه سيكون بجارحة فيكون فيه تشبيه، لكن ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] ليس فيها جارحة، مع أن العزة والحكمة هي عرض[٢٧] وهم ينزهون الله عن العرض[٢٨]، فما فائدة هروبك من إثبات ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إلى ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والكل محال على الله في عقيدتك؟!.

ثم كيف يقرأ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من غير أن تكون ثابتة في القراءآت، ليس لك أن تختم آية بآية أخرى ليست بثابتة في ختامها؟! أو بقراءة ليست ثابتة؟!.

وقد علم أن القراءة لها ثلاثة شروط أو أركان:

أولها: أن يكون لها سند إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قرأ بها.

---

(٢٦) انظر: الإبانة الكبرى لابن بطة (٦/ ٩٢)(٣٢٢).

(٢٧) أي في اصطلاح أهل الكلام، انظر: مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ٥٩).

(٢٨) فالأشعرية لا يسمون ما يثبتون لله من الصفات أعراضا والكرامية يسموها أعراضا انظر: درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٣/ ٤٣٤)،"بل المعتزلة عمدتهم في النفي أن الصفات أعراض .." درء تعارض العقل والنقل ط-أخرى (٥/ ٢٤٥).

الثاني: أن توافق اللغة العربية.

الثالث: أن توافق رسم المصحف، فرسم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا يوافق رسم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فهذه ثلاثة أركان.

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ لِلرَّسْمِ احْتِمَالاً يَحْوِي

وَصَحَّ إِسْنَاداً هُوَ الْقُرآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلاثَةُ الأَرْكَانُ[٢٩]

فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ السَّمِيعَ الْبَصِيرَ أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

بَيَانُ وُجُوهِ إِعْرَابِ "كَمِثْلِهِ"

وَفِي إِعْرَابِ كَمِثْلِهِ – وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْكَافَ صِلَةٌ زِيدَتْ لِلتَّأْكِيدِ[٣٠].

---

(٢٩) متن «طيبة النشر» في القراءات العشر (ص: ٣٢).

(٣٠) وممن رجح هذا القول صاحب شرح كتاب سيبويه (١/ ٢٣٥)، شرح ألفية ابن مالك للشاطبي = المقاصد الشافية (٣/ ٦٦٣).

قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ[٣١]:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ   خلقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَــائِلِ

وَقَالَ آخَرُ[٣٢]:

مَا إِنْ كَمِثْلِهِمُ فِي النَّاسِ مِنْ بَشَرِ

---

(٣١) هو: أوس بن حجر بن عتّاب. قال أبو عمرو بن العلاء: كان أوس فحل مضر، حتّى نشأ النابغة وزهير فأخملاه. الشعر والشعراء (١/ ١٩٨) لم يدرك الإسلام وله ديوان " أوس بن حجر" وما عليه من مستدركات: دراسة تحقيقية نقدية تأليف: أ. د. عبد الرَّازِق حويزي، وهو غير الصحابي انظر: المؤتلف والمختلف في أسماء نقلة الحديث وأسماء آبائهم وأجدادهم (١/ ٣١٣). ولم أجد هذا البيت في ديوانه وذكره الثعلبي بدون ذكر قائله انظر: تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٨/ ٣٠٦)، وعزاه إلى أوس الزجاج في معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ٣٩٥)، وأبو حيان الأندلسي انظر: البحر المحيط في التفسير (٩/ ٣٢٦).

(٣٢) البيت بتمامه:

سَعد بن زيدٍ إِذا أبصرتَ فضلهمُ   ما إِن كمثلهمُ في الناس من أحدِ

كذا أورده نشوان الحميري بلا نسبة. انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٩/ ٥٩٢٦).

يعني الكاف زائدة في هذا البيت والذي قبله، **لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ** أي ليس مثل الفتى زهير .

وَقَالَ آخَرُ(٣٣):

وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ

فَيَكُونُ (مِثْلِهِ) خَبَرُ لَيْسَ وَاسْمُهَا شَيْءٌ. وَهَذَا وَجْهٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ، تَعْرِفُ الْعَرَبُ مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهَا، وَلَا يَخْفَى عَنْهَا إِذَا خُوطِبَتْ بِهِ.

---

(٣٣) هو لأوس بن حجر بن عتّاب في ديوانه بتحقيق وشرح: الدكتور مُحَمَّد يوسف نجم (ص: ٣٠) وتمامه:

وَقَتْلى كَمِثْلِ جُذوعِ النخيلِ   تَغَشّاهُمُ مُسْبِلُ مُنْهَمِرْ

وَقَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ أَيْضًا زِيَادَةُ الْكَافِ لِلتَّأْكِيدِ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ(٣٤):

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنَ

وَقَوْلِ الْآخَرِ(٣٥):

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الزَّائِدَ (مِثْلِ) أَيْ: لَيْسَ كَهُوَ شَيْءٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَعِيدٌ، لِأَنَّ مِثْلَ اسْمٌ وَالْقَوْلُ بِزِيَادَةِ الْحَرْفِ لِلتَّأْكِيدِ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ بِزِيَادَةِ الِاسْمِ.

---

(٣٤) انظر: العين (٨/ ٢٤٥)، ونسبه سيبويه إلى خطام المجاشعي، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٤٠٨).

(٣٥) نسبه سيبويه إلى حُمَيْد الأَرقط، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٤٠٨).

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ زِيَادَةٌ أَصْلًا، بَلْ هَذَا مِنْ بَابِ قَوْلِهِمْ: مِثْلُكَ لَا يَفْعَلُ كَذَا[٣٦]، أَيْ: أَنْتَ لَا تَفْعَلُهُ[٣٧]، وَأَتَى بِمِثْلٍ لِلْمُبَالَغَةِ، وَقَالُوا فِي مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ هُنَا: أَيْ: لَيْسَ لِمِثْلِهِ مِثْلٌ لَوْ فُرِضَ الْمِثْلُ، فَكَيْفَ وَلَا مِثْلَ لَهُ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

بل الأظهر ما قلناه، أن مثل بمعنى وصف[٣٨].

---

(٣٦) انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ٢٣٧) فقد حكى هذه الأقوال الثلاثة.

(٣٧) انظر: أسئلة وأجوبة في إعراب القرآن (ص: ١٥).

(٣٨) انظر: التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (١١/ ٢٦٠)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٢/ ٧٦١).

وقال ابن النحاس: " قال أكثر الناس: زائدة للتوكيد، والمعنى والله أعلم: ليس مثله شيء، وقال جماعة من المحققين: ليست الكاف هنا زائدة، وإنما هي على بابها، ومعنى الآية والله أعلم: نفي مثل المثل، ويلزم من ذلك نفي المثل ضرورة وجوده سبحانه وتعالى، فإن قيل لمَ يوصل إلى نفي المثل بنفي مثل المثل، وهلاّ نفي المثل من أول وهلة، فالجواب أن النفي بنفي مثل المثل أفخم وأبلغ من نفي المثل، بدليل أن قولنا: فلان لا يفعل هذا، أبلغ وأفخم من قولنا: أنت لا تفعل هذا، لأنه نفي الشيء بذكر دليله، فهو أبلغ من النفي من غير ذكر الدليل" التعليقة على المقرب (٦٩٨) (ص: ٢٤٦).